الثقافة الأمريكية:
آليات الاشتغال وتراكم الأثر : (العراق أنموذجاً)

أ.م.د. عبدالجبار عيسى عبدالعال السعيدي
الجامعة المستنصرية ـ كلية العلوم السياسية

المقدمة:

لاشك إن الثقافات في العموم تتمتع بفضاءآت تَمارس فيها ديناميكيات التأثير والتأثُر ، وهذا ما يثبته التاريخ دوماً. والمعتاد أن يأتي هذا التأثير والتأثر عن طريق طبيعي (غير قصدي) وهو ما يجري عن طريق التثاقف الطبيعي أو عن طريق الاتصالات المجتمعية أو حتى التجارية. وهناك الطريق القصدي في نشر الثقافة والذي غالباً ما كان قصد الهيمنة وراءه، ويأتي في سياقه القصد السياسي والتوسع والاستعماري وما شاكل بحيث تصبح ثقافة المهيمن، التي ستسيطر، وسيلة أساسية لتقبل أو لتثبيت تلك الهيمنة وتكريس تبعية الآخرين للدولة المهيمنة. والواقع إن عملية نشر الثقافة الأمريكية بصيغتها الشعبية أو المؤسسية لا تخرج عن هذا السياق التاريخي بل هي، في الكثير من جوانبها، إعادة إنتاج تاريخي لسياقات الهيمنة الرأسمالية الإمبريالية.

إننا في بحثنا هذا نحاول التعرف على آليات اشتغال هذه الثقافة عالمياً وتراكم أثرها ومن ثم نحاول دراسة هذه الإشتغالات في العراق على وجه الخصوص باعتبار إن العراق يفترض أن يكون ساحة لهذه الإشتغالات بعد الاحتلال ، لنتعرف بالتالي على مديات النجاح والإخفاق بهذا الخصوص. وعلى هذا الأساس فإن هذا البحث الذي سيتناول الموضوع في قسمين: الأول يتناول إشتغالات الثقافة الأمريكية وتراكم آثارها عالمياً. والقسم الثاني سيخصص لدراسة اشتغالاتها في العراق كأنموذج للدراسة.

لقسم الأول: الثقافة الأمريكية والانتشار العالمي

تَثير الثقافة الأمريكية دوماً جدلاً، لاسيما في العقود الأخيرة من الزمن، سواء في الداخل الأمريكي أو في الخارج، فهي ليست ثقافة عادية تختص بجماعة اجتماعية معينة وإنما هي توليفة فرضها التكوين الأمريكي نفسه الحديث نسبياً. وها هي اليوم تشكل جدلاً واسعاً في البلدان التي تحاول أن تغزوها بين مؤيد ومقاوم وقد أصبحت تشكل طليعة ما يسمى بالغزو الثقافي. وتبعاً لذلك فقد كانت إشتغالات هذه الثقافة خارجياً تستند على تكريس الأسس التي بنيت عليها و كذلك تعزيز النموذج الأمريكي في كل المجالات كونياً عن طريقين؛ الأول هو الثقافة الشعبية والثاني هو الثقافة المؤسسية، وكلاهما يكمل الآخر.

وإذا كانت الثقافة الشعبية الأمريكية ، والتي هي طرز الحياة والسلوك الاجتماعي الأمريكي ، هي الطاغية طيلة عقود مضت ، فإن الثقافة المؤسسية التي تتبناها المؤسسات الرسمية وغير الرسمية الأمريكية ، والتي يأتي في سياقها طرز التنظيمات البيروقراطية وأساليب العمل المؤسسي وغير ذلك، بدت أمريكا "الرسمية" تستخدمها كعامل تأسيس في بلدان احتلتها أو ركزت اهتمامها بها منذ حين، وكان العراق مثالاً لذلك.وقد أتيحت لهذه الثقافة فرصة كبرى في أن تنتشر مع انهيار النظم الاشتراكية في العالم ومن بعدها امتطاء أميركا للعولمة التي باتت تغطية لنشر هذه الثقافة. فما هي آليات هذه الثقافة الأمريكية، وما هي نجاحاتها ومعوقاتها عالمياً وما هي الآثار التي تراكمت نتيجة لانتشار هذه الثقافة؟

أولاً: في الثقافة الأمريكية:

على الرغم من أن الثقافة ،كمفهوم، يمكن أن تحمل أكثر من تعريف واحد، إلاّ إننا يمكن أن نورد هنا تعريفاً لها على إنها "رؤية شاملة للعالم – بمستوى أو بآخر– تتجلى أو تتجسد فردياً ومجتمعياً في المفاهيم والقيم وظواهر السلوك والممارسات المعنوية والعلمية والحياتية المختلفة، توحدها اللغة في المجتمع الواحد، وإن تنوعت

بتنوع فئات هذا المجتمع من حيث مواقعها الاجتماعية ومواقفها الفكرية، مما شكل الخصوصية الثقافية والقومية لهذا المجتمع"[١]

وبهذا المعنى فإن الثقافة ، والتي تتكون من القيم والهوية، تمثل في معناها الأنثروبولوجي نظام تمثيل رمزي يتكون المجتمع من خلالها أو بها فتميزه عن غيره. والثقافة الأمريكية على الرغم من الفترة القياسية السريعة التي تكونت بها، هي ثقافة لا تخرج عن إطار النظرة أو الرؤية الشاملة للعالم، ولعل الذي جعلها ثقافة تبزُّ الثقافات الأخرى هو موقعها في إطار الرأسمال العالمي ، فهي تشكل قطب الرحى لذلك النظام منذ عقود خلَت. ولا شك إن "العولمة" كانت الذراع الطويلة التي لازالت تحاول إيصال تلك الثقافة إلى أصقاع لم تكن الولايات المتحدة بالغتها لولاها.

ومن هنا يرتبط الكثير من المفكرين والكتاب بين مفهوم العولمة و "الأمركة". ولكن قبل ذلك الربط لا بد لنا أن نتعرف على المتبنيات أو الأسس التي تقوم عليها الثقافة الأمريكية أصلاً. ففضلاً عن مبدأ اللبرالية، تقوم الثقافة الأمريكية على مبدأ "الفردية" الذي هو في الواقع جوهر هذه الثقافة. وهذه الفردية ، في الأساس، كانت إحدى القيم الأساسية لمشروع الحداثة الأوربي الذي صعدت الرأسمالية الغربية في ظله، ولكنها "الفردية" أصبحت من ثم قيمة أمريكية ثقافية عليا يتربى عليها الصغار والكبار في أمريكا، فهي، في أحد أوجهها، ثقافة تكون المصلحة الفردية فيها فوق مصلحة الجماعة. ولكن بقدر ما للفردية من مزايا، فإن فيها من السلبيات ما هو أكبر، فهي تؤدي إلى استجلاب الفساد وإلى إصابة المجتمع بخلل كبير ولاسيما عندما يصبح تغلب المصلحة الفردية على مصلحة الجماعة مسوغاً حتى ولو تحقق ذلك بطرق غير مشروعة.[٢]

وفي مجال نشر ثقافتها إلى دول العالم ، تحاول الولايات المتحدة الأمريكية تمرير ثقافتها اللبرالية ممزوجة مع توجهات العولمة، فأمريكا تحاول تمرير القيم الفردية وتعميق الشكوك حول دور الدولة، وهذه هي قمة القيم اللبرالية الرأسمالية، في

الوقت الذي تحقق فيه العولمة مزيجاً من النجاح وانعدام المساواة في الوقت عينه ، وبالنتيجة، فإن هذا المزيج، بمفهوم العولمة، يجب أن يزدهر ويقابل بترحاب.[٣]

على هذا الأساس فإن الكثير من المفكرين والمختصين ، يعتبرون أن العولمة وسيلة لتسويق وتعميم أنماط التفكير والاستهلاك الأمريكي. فالولايات المتحدة الأمريكية هي المنتج والموزع الرئيس لوسائل الاتصال مثل الانترنت ووسائل الإعلام وكذلك صناعة السينما ومنتجات الثقافة الصناعية والصناعات الثقيلة، وتسيطر كذلك على أدوات الثقافة العالمية مثل اللغة والتعليم والجامعات والبرامج والعروض والعالم الافتراضي، وكل ذلك يتضمن رموزاً أمريكية صرفة.[٤]

إن انتشار (الأمركة) في العالم هو في الواقع انتقال من مرحلة العموم إلى مرحلة الخصوص، أي تعميم نموذج المجتمع القومي العلماني والانتقال من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، وبالنتيجة أصبحت سائغة بعض المصطلحات التي هي في صلب الثقافة الأمريكية وقد سوقت عالمياً مثل الأمركة Americazation والكوكلة Cocacolization نسبة إلى الكوكاكولا، والمكدلة Macdonalization نسبة إلى سلسلة مطاعم ماكدونالدز رمز الثقافة الأمريكية.[٥] مع ذلك لا يمكن اختزال تمرير الثقافة الأمريكية بمجرد مظاهر معروفة لهذه الثقافة، فهي في وجهها الحقيقي (ثقافة اختراق) لا تكاد تختلف عن العولمة الثقافية حتى أن خلطاً يحصل أحياناً في من يستخدم من ؛ الثقافة الأمريكية تستخدم العولمة أم العكس، والواقع أنهما وجهان لعملة واحدة طالما كانت أميركا سيدة للنظام الرأسمالي.

إن ثقافة الاختراق تلك تحاول أن تقدمها العولمة بأن تكون بديلاً للصراع الإيديولوجي، لكنها في الواقع ثقافة تقوم على تسطيح الوعي واختراق الهوية الثقافية للأفراد وإنها تقوم على جملة أوهام هي نفسها مكونات الثقافة الإعلامية الجماهيرية في الولايات المتحدة والتي حصرها باحث أمريكي في خمسة أوهام هي : "وهم الفردية، وهم الخيار الشخصي، وهم الحياد، وهم الطبيعة البشرية التي لا تتغير، وهم

غياب الصراع الاجتماعي" وهذه في الحقيقة إيديولوجيا تضرب هوية الآخر الثقافية. [٦]

ولعل من الواضح ارتباط العولمة بالثقافة الأمريكية، فالعولمة تحاول زرع وتنمية الاستلاب الثقافي وخاصة في جيل الشباب والذي يبدو من خلال الانبهار بكل ما هو أجنبي، وإشاعة مفاهيم وقيم تعبر عن الاتجاه النفعي ،الأمريكي بالذات، وإضعاف الثقة بنفس المواطن والسعي لتفعيل النموذج الأمريكي.[٧]

وبالتالي، لعل من الواضح أن تكون العولمة، كما ترى أستاذة أمريكية من جامعة كولومبيا " تبرئة لتغطية الأمركة" [٨] وهذه الأخيرة بدورها ومن خلال نشر الثقافة الأمريكية واختراق الثقافات الأخرى، تكون بمثابة تغطية ثقافية للمشروع الرأسمالي، فهي في واقع الحال تعمل على نشر ثقافة اقتصاد السوق والثقافة الاستهلاكية وتوسيع نطاق التبادل التجاري والاهتمام بالأعلام لتحقيق الأهداف المطلوبة، فحرية السوق الرأسمالية تعني تحرير الجميع من أي التزام تجاه الذات، وبالتالي فإن تبرير الهيمنة الاقتصادية والسياسية وتسويغها يستدعي غطاءاً ثقافياً. [٩]

ولكن، وفي خضم هذا المد الثقافي الرأسمالي الأمريكي، ما هي العوامل التي ساعدت على تغلغل هذا المد الذي يسير بخطى عولمية في أنحاء العالم؟

لعل من المناسب القول أنه بسبب الضغوط الثقافية الخارجية والإخفاقات الذاتية التي أصابت المؤسسات القيمية بسبب جمودها وعدم تكيفها مع التحولات الثقافية الكونية، تؤدي العولمة إلى انهيار ما يسميه المفكر المغربي (عبد الإله بلقزيز) بـ (السيادة الثقافية) فكان من نتيجة ذلك أن انهار النظام الثقافي الوطني التقليدي، الأمر الذي سيؤدي إلى شل قدرة المقاومة لأدوات العولمة .[١٠] والتي تكّون الأمركة ومضمونها الثقافي جوهرها.

ثانيا: آليات نشر الثقافة الأمريكية:

قبل أن نتناول آليات نشر الثقافة الأمريكية لا بد من القول ابتدءاً إن انتشار الثقافة الأمريكية لم يأت مع العولمة وإنما كان موجوداً بالأصل في مناطق عديدة من العالم وبوسائل عديدة منها ما هو إعلامي ومنها ما جاء مع التواجد العسكري الأمريكي في غير مكان، ومنه ما جاء على شكل مؤسسات علمية واقتصادية وما إلى ذلك .. وهذه الأمور كلها مهدت من الناحية التاريخية إلى انتشار الثقافة الأمريكية على نطاق عالمي جاءت العولمة لتُتمه.

ومن جانب آخر نجد أيضاً إن الدولَةَ الأمريكية، بمؤسساتها المختلفة هي التي ترعى هذا الانتشار فضلاً عما تتلقفه الشعوب الأخرى من العادات والطبائع والقيم الأمريكية عن طريق الإعلام والدعاية أو حتى الأساليب التبشيرية المسيحية وغير ذلك من عمل مؤسسات مثل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية US aid ومؤسسة Ford وغيرها.

ولعل بالإمكان القول إن نشاط الثقافة الأمريكية قد بدأ عالمياً منذ القرن التاسع عشر مع الإرساليات المسيحية، فعلى سبيل المثال بدأت أول الإرساليات الأمريكية في مصر عام ١٨٥١ وكان عملها في البداية يتركز على تحويل أقباط مصر إلى المذهب البروتستانتي فضلاً عن نشر المسيحية بين المسلمين، وهي ذاتها التي مهدت فيما بعد لإنشاء الجامعة الأمريكية في القاهرة والتي استقلت عن الإرساليات رسمياً في عام ١٩٢٣ ولكنها ظلت مع ذلك تمثل إحدى دعامات الفكر المسيحي الأمريكي في الشرق الأوسط، وتدريجياً بدأت تمثل الثقافة الأمريكية وتسقطها على نخبة المجتمع.[١١] وكان الأمر ذاته أيضاً بالنسبة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت.

كما حاولت الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص نشر بعض من ثقافاتها لاسيما في أوربا، الأمر الذي أثار قلق الأوربيين لاسيما الفرنسيين منهم كما سنرى.

وبما أن الثقافة الأمريكية تتبع في بعض أوجهها النمط الاستهلاكي فإن معالم مؤسسات استهلاكية كانت إحدى أدوات نشر الثقافة الأمريكية ومثال ذلك مطاعم ماكدونالدز MacDonald's التي تقدم الطعام الأمريكي في الكثير من دول العالم، وكذلك سلسلة محلات الوول مارت Wal Mart التي تشكل اكبر سلسلة متاجر في العالم.وتأتي الخصوصية الثقافية لهذه السلسلة من كونها تشكل رمزاً لتطور الحياة الأمريكية في انتقالها من عصر محلات تجارة المفرد إلى تجارة الجملة والمنافسة القائمة على السعر الزهيد بدلاً من الجودة.

إن محلات الوول مارت التي تأسست في ولاية اركنساس عام ١٩٦٢ أصبحت في عام ٢٠٠٥ بحدود ٦٢٠٠ متجراً أكثر من نصفها يقع خارج الولايات المتحدة بمعدل ١٢ دولة ويعمل بها ١.٦ مليون موظف ويرتادها حوالي ١٣٨ مليون مستهلك أسبوعيا.[١٢] هذا كلّه بالطبع مع ما تحمل الدعايات العالمية لمنتجات أمريكية ترمز للثقافة الأمريكية الكوكاكولا وسيارات الشفروليت والفورد، والمعلم الأهم، هوليود وما تنتجه وتسوقه إلى العالم، وما يتصل بذلك من الظواهر الفنية مثل رامبو ومادونا ومايكل جاكسون فضلا عن تسويقات موسيقى الراب ورياضة البيسبول والمصارعة الحرة وأبطالها الأمريكان .

في الجانب الإعلامي وفي مطلع الألفية الثانية سرعت الولايات المتحدة في وتيرتها الإعلامية لنشر ثقافتها سيما وان الأوضاع الإستراتيجية والسياسية التي سادت العالم وخطط أمريكا في تسيير العالم لاسيما منطقة الشرق الأوسط وفق أجندتها العالمية بعد بروزها كقطب وحيد عقب انهيار الإتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية. فعلى سبيل المثال بدأت الولايات المتحدة ضخ برامج تلفزيونية عبر محطات فضائية مثل محطة (ABC) إلى المنطقة العربية من خلال برامج إخبارية وحوارية مثل برنامج (برايم تايم) ومسلسلات أمريكية. بعد ذلك تولّت شبكات فضائية عربية يبدو أن لها صلة وثيقة بالمؤسسات الأمريكية مثل شبكة (mbc) التي توسعت إلى (mbc١)

للأخبار والمنوعات العربية و (mbc٢) المخصصة لأفلام هوليود وقناة (mbc٤) التي تعرض البرامج الحوارية والمسلسلات الأمريكية.[١٣] كما توسعت بعد ذلك إلى قنوات تمثل أنماطاً هوليودية مثل (mbc Action) التي تقدم أفلام الأكشن الأمريكية و (mbc Max) التي تقدم أفلام مجتمعية فضلاً عن قناة الأطفال (mbc٣) التي تقدم مواد في أعمها الأغلب أميركية أصبح من أشهرها مسلسل (هانا مونتانا) الأمريكي.بل إنها وسعت نطاقها للتأثير على المجتمعات الإيرانية من خلال استحداث(mbc Persia) التي تبث أفلام مترجمة إلى اللغة الفارسية. وفي دبي في الإمارات العربية المتحدة بدأت محطة (One TV) إرسالها في أواخر عام ٢٠٠٤ وهي تقدم نفس النوع من ثقافة الترفيه الأمريكية ، هذا فضلاً عما تقدمه مجموعة روتانا Rotana الفنية وعشرات القنوات الفنية العربية بل وحتى الكورية والهندية وغيرها والتي تبث برامج تحمل النهج الأمريكي ذاته الذي يركز على السطحية ولمحات الإثارة الجنسية ، وهو ما يضع في التطبيق نظرية (تسليع الجسد) التي بدأت الرأسمالية العالمية التي تقودها الولايات المتحدة بالترويج لفلسفتها .

كذلك سعت الإدارة الأمريكية من جانبها لاستخدام الثقافة الأمريكية لكسب التأييد لسياستها الإقليمية من خلال قنوات إذاعية وتلفزيونية مثل (راديو سوا) الذي يهتم بتقديم الموسيقى والأخبار، و(قناة الحرة) التلفزيونية بشقيها الحرة العامة، و(الحرة – عراق)،وكل من هذه المحطات ناطقة باللغة العربية و بتمويل وإشراف أمريكي.[١٤]هذا فضلاً عن مواقع الانترنت الأمريكية التي يروج الكثير منها للدعاية الأمريكية الموجهة ويأتي في مقدمتها موقع الـ(فيس بوك Face book) وهذا بالطبع لم يأت من فراغ فقد كانت هنالك دعوات لاستخدام الثقافة في السياسة الأمريكية تعززت بعد حرب العراق ٢٠٠٣ لعل أهمها دعوة المفكر الأمريكي (جوزيف ناي) وهو الكاتب الأمريكي المتخصص في شؤون السياسة والأمن والذي دعا إلى التمييز بين قوتين في الولايات

المتحدة (القوة الخشنة) وهي القوة العسكرية والاقتصادية و (القوة الناعمة) والتي هي القوة الثقافية والإعلامية.[١٥]

وعلى مثل هذه الأسس بادرت الإدارة الأمريكية ممثلة بوزارة الخارجية الأمريكية إلى ما سمي بمبادرة الشراكة مع دول الشرق الأوسط التي أعلنها الوزير الأسبق (كولن باول) حيث تم فيها رصد ٣٥ مليون دولار لمحاولة (إصلاح) مسار الإعلام العربي على أساس أن يكون إعلام حر ديمقراطي " ينشر قيم السلام والمحبة والمودة واحترام الآخرين وينهي إلى الأبد المنظمة القيمية البالية والتي لم تعد صالحة لعالم اليوم.. "[١٦] وهذا كلّه بالطبع غطاء للمشروع الأمريكي الثقافي السياسي في المنطقة لأن الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية US aid هي التي تقوم بتدريب الصحفيين في الجامعات مثل جامعة غرب كنتاكي وبإشراف مؤسسة (أنتر نيوز) الصحفية الأمريكية، ويكون اختيار الصحفيين مشروطاً من قبل الأمريكان. [١٧]

ثالثاً: الثقافة الأمريكية بين التأثير والمقاومة:

لعل من الطبيعي وفق أدوات الثقافة الأمريكية التي مرت بنا، أن تنتشر الثقافة الأمريكية عالمياً، في الوقت الذي لم تعدم معارضين لها في الكثير من البلدان التي تغزوها، و من الواضح أيضاً إن الذي ينتشر من هذه الثقافة هو الجانب الظاهري أو المظهري فيها ، وأقصد الثقافة الشعبية ، فقد انتشرت هذه الثقافة الشعبية الأمريكية ، والتي ارتبطت بظاهرة العولمة في مختلف دول العالم، حيث شمل غزوها حتى الدول المتقدمة سياسياً واقتصادياً وصناعياً فضلاً عن دول ومناطق أخرى لها هويات تكاد تكون مغلقة كما حصل في اليابان مثلاً، فعلى الرغم من ان اليابان حاولت، ونجحت إلى حد ما، في الحفاظ على هويتها الثقافية إلاّ أنها تأثرت أيضاً بالثقافة الظاهرية الأمريكية في الأزياء والموسيقى والسينما والأطعمة والترفيه.[١٨] وكذلك الأمر بالنسبة إلى (إسرائيل) الملتزمة بالهوية اليهودية والطعام اليهودي، فقد اجتاحت محلات ماكدونالدز القدس بصورة لا تتبع فيها قوانين الطعام الشرعية

اليهودية.[١٩] كما عمت الثقافة الأمريكية مناطق مثل بوتان في الهمالايا رغم أنها أحد معاقل البوذية الرئيسية حيث بدأت هناك مظاهر الملبس الأمريكي والإقبال على مشاهدة الأفلام الأمريكية. والشيء ذاته في مقاطعات شرق روسيا. أما في إيران فقد أصبحت موسيقى الروك الأمريكي أشهر موسيقى لدى أبناء الطبقة الوسطى حتى مع وجود النظام الديني هناك. كذلك بالنسبة إلى الجمهور الألماني الذي صار شغوفاً بأفلام رعاة البقر، وبدلاً من الأغاني الألمانية صار يتغنى بالأغاني الأمريكية.[٢٠] والمفارقة ان هذه الأغاني تقوم على أساس الضوضاء العالية حتى إن احد الفنانين الأمريكان من نيويورك يتنبأ بسيادة ما يسميه بالصراخ والزعيق الأمريكي Screen بمفرده في العالم أجمع.وكما يرى مؤلفا كتاب فخ العولمة (هانز بيتر مارتن وهارالد شومان) انه ومنذ سنوات تقتفي "من تومسك في سيبيريا وحتى فينا ولشبونة، طليعة ثقافية شابة وعالية الزعيق، ما ساد في نيويورك قبل عقدين من الزمن، وهج مفتعل وصراخ يصك الآذان".[٢١]

أما في المنطقة العربية، فضلاً عن التأثر بالثقافة الأمريكية الشعبية من خلال الحفلات الصاخبة أو الصرعات ما بعد الحداثية، ليس لدى الشباب فقط بل وعند النخبة الفنية على وجه الخصوص.كما انه، ونتيجة لشيوع الفردية التي هي واحدة من مرتكزات الثقافة الأمريكية في العديد من البلدان العربية ،لاسيما بعد انهيار اقتصادياتها الاشتراكية، حدثت ظواهر فساد على نطاق واسع بالأخص بين المتنفذين سياسيا ومدراء المؤسسات، وتمثل ذلك بظاهرة المؤسسات المالية التي أطر بعضها نفسه بإطار إسلامي ومارست الاحتيال العلني على المودعين، فضلاً عن ظواهر الفساد والاختلاس التي مارسها المتنفذون في هذه الدول.[٢٢]

أما تأثير القنوات الفضائية العربية الحاضنة للثقافة الأمريكية، فهناك مفارقة تجمع بين تقبل الثقافة الأمريكية ورفض السياسة الأمريكية، فالعرب لا يحبون السياسة الأمريكية لكنهم يفضلون ثقافة الترفيه الأمريكية التي تبثها القنوات السالفة الذكر.[٢٣]

كما إن العديد من المؤسسات أو الوكالات الأمريكية العالمية في المنطقة العربية مثل الجامعات الأمريكية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية وفورد وغيرها خلقت أجيالاً ومؤسسات ومنظمات متأثرة بالثقافة الأمريكية، بل إن بعضها يتهم بصورة علنية بأنها تعمل لصالح وكالة المخابرات الأمريكية CIA . فقد كشف أستاذ علم الاجتماع الأمريكي (جيمس بتراس) من انه أصبح من المعروف إن مؤسسة فورد لتنمية المجتمعات كانت من أهم القنوات التمويلية التي تستخدمها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA.[٢٤]

والواقع أنه وفي ظل سياسات الانفتاح في مصر استطاعت هذه المؤسسة أن تتسلل إلى الحياة الثقافية المصرية عن طريق دفع تمويلات ضخمة لفرق مسرحية وفلكلورية ومراكز وجمعيات ثقافية من خلال الترويج لفكرة (الفن للفن) والابتعاد عن الواقع.[٢٥]

ومصر بالذات قد جرى التركيز عليها كثيراً في مجال نشر الثقافة الأمريكية وهذا ما يلاحظ على الإنتاج السينمائي وحتى المسرحي هناك، فـ (أفلام الشباب) الحديثة التي تقدمها قناة ميلودي أفلام وغيرها خير مثال على ذلك بحيث تجدها أحيانا نسخ من أفلام التسلية الأمريكية تتخللها لقطات إباحية. و الملاحظ أيضاً أنها تصور بتقنية عالية تفترض تمويلاً ضخماً، هذا فضلاً عن تفشي ظاهرة المحاكاة الأمريكية في سلوك الشباب من الذكور والإناث لاسيما من أبناء الطبقة الوسطى التي أثرت بعد الانفتاح. وبالطبع هذا الأمر لا يشمل الشباب المصري فقط بل، وإن بدرجة ما، الشباب الخليجي والتونسي واللبناني، فصرعات الجينز والكلاسيك وموسيقى الراب وأقراط الأذن عند الذكور وما إلى ذلك أصبحت شائعة في بعض هذه البلدان.

هنا تمارس الولايات المتحدة دوراً مزدوجاً في تمرير الثقافة الأمريكية، فهي تستخدم هذه الثقافة في البلدان الشرق أوسطية والبلدان النامية بصورة تتعمد فيها إشاعة النموذج الاستهلاكي والنفعي الفردي، فهي من باب تضمن التمهيد لمشروعها الرأسمالي القادم في هذه المناطق ومن باب آخر تلفت الانتباه عن ما تريد تحقيقه

سياسياً وإستراتيجياً، ولهذا السبب لم يعدم التمرير الثقافي هذا معارضين له في غير بلد من العالم. لكن يبدو ان هذه المعارضة أو الممانعة تركزت في البلدان المتقدمة أكثر من البلدان النامية كون المجتمعات في هذه البلدان الأخيرة ،وبسبب نظمها الشمولية وفقر أوضاع بعضها، لم يسبق إن ذاقت رفاهية ، وان كانت سطحية، كالتي تقدمها الثقافة الأمريكية لها .ومن اللافت إن هذه الثقافة أصبحت تمرر في ظل عجز الكثير من الحكومات، فبالنسبة للبلدان العربية تمرر الثقافة الأمريكية تحت مسمع ومرأى الحكومات العربية دون أن تفعل شيء للحد من ذلك، في حين إن دولاً غربية مثل فرنسا وكندا وقفت في وجه المد الإعلامي الأمريكي.[٢٦]

إن عملية مقاومة الغزو الثقافي الأمريكي في أوربا ،على سبيل المثال، لا تخلو من مفارقة، فالذي يقوم بهذا الدور ليس المجتمع وإنما الحكومات، ولكن ربما يشذ الفرنسيين عن هذه القاعدة، فمنذ الحرب العالمية الثانية ،عندما حاول الأمريكان تمرير ثقافتهم في أوربا، بدأ الفرنسيون بالقلق على المستوى الشعبي أو السياسي بيمينه ويساره، فقد كان هناك قلق بشأن هيمنة مشروب (الكولا) على الأسواق الفرنسية، وكذلك من الانتشار الواسع لكتاب (الكفاح الأمريكي) الذي يتحدث عن هيمنة الشركات الأمريكية في أوربا، والذي حقق أفضل المبيعات في حينها. أما في الوقت الحاضر فإن مطاعم ماكدونالدز تشكل قمة القلق الشعبي بالنسبة للفرنسيين، وقد أصبح (جوزيه بوفيه) الذي قام بتحطيم واجهة مطعم ماكدونالدز جنوب فرنسا عام ١٩٩٩ رمزاً لرفض الثقافة الأمريكية.[٢٧]

ولعل هناك ما يبرر هذه الممانعة الفرنسية ، فالفرنسيون، وريثوا مؤسسي الفلسفة الأوربية الحديثة والثورة الفرنسية، يرون أنفسهم أطول باعاً في الثقافة من أميركا، كما أن متبنيات الثقافة الرأسمالية عندهم تختلف نوعاً ما عن المتبنيات الرأسمالية الأمريكية لاسيما فيما يتعلق بدور الدولة و تدخليتها، فضلاً عن السلوكيات الأحادية في السياسة الأمريكية وما يأتي في سياقها.

أما على المستوى الفوقي الحكومي لجهة الممانعة، فإن الأوربيين بدءوا على المستوى الرسمي يبحثون عن معالم المعارضة للثقافة الأمريكية، ففي إحصاء للاتحاد الأوربي ظهر أن ٥١% من الأوربيين يتكلمون اللغة الإنكليزية كلغة ثانية مقابل تراجع اللغات الأخرى. في المانيا تبدو اللغة الأنكليزية باللكنة الأمريكية هي الطاغية بل إن المؤسسات التعليمية الألمانية تعمل على جلب مدرسين من الولايات المتحدة للتدريس في المدارس الثانوية.[٢٨] بل إن هناك كلمات أصبحت مألوفة في اللغة الألمانية يطلق عليها Denglish بحيث أصبحت تقبل الكلمات الإنكليزية في لغتها وتعد ذلك امرأ مفيداً. وكذلك ورود كلمات جديدة بالفرنسية تمزج بين الإنكليزية والفرنسية مثل Le week end - La parking، ولهذا السبب عمد الاتحاد الأوربي في السنوات الأخيرة إلى الشروع في تأسيس اكبر مشروع ثقافي– علمي وهو المكتبة الرقمية Europeana الذي كان مؤملاً إنجازه في ٢٠٠٧ وذلك رداً على عملاق الإنترنت الأمريكي Google الذي فتح مكتبة رقمية عالمية شاملة عام ٢٠٠٥. والواقع إن هذا الأمر استفز الفرنسيين بالذات أكثر من غيرهم حيث رأوا فيه إن الثقافة على هذا الأساس سوف تقرأ بمنظار أمريكي.[٢٩]

ولعل خير من عبر عن الموقف الفرنسي الحكومي المعارض لغزو الثقافة الأمريكية هو وزير الثقافة الفرنسي الأسبق (جاك لانغ) عندما علق على صادرات الحبوب الأمريكية إلى العالم قائلاً: "إن الولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى في الثقافة المستهلكة لن تهيمن على وسائل اللهو والتسلية فقط بل ستوزع الخبز أيضاً".[٣٠]

من خلال وذلك يتبين عن الثقافة الأمريكية تمتلك آليات عديدة في نشر ثقافتها في العالم كما إن لها آثارها الراسخة والمتراكمة في الكثير من مجتمعات الدول، ولكن هل كان الأمر كذلك بالنسبة إلى العراق ؟ فالعراق يفترض أن يكون البلد المحتل رقم (١) في سلّم الأولويات الإستراتيجية للولايات المتحدة .هذا ما سنحاول التعرف عليه في القسم التالي.

القسم الثاني: واقع الثقافة الأمريكية في العراق

قبل الدخول في واقع الثقافة الأمريكية في العراق لابد لنا من مقاربة تاريخية للوجود الثقافي الأمريكي في هذا البلد، وما يلاحظ بهذا الصدد إن الولايات المتحدة كانت ومتذ القرن التاسع عشر قد شملت العراق كما بلدان شرق أوسطية أخرى بنهج أرسال البعثات التبشيرية المسيحية ، ففي مطلع ثمانينيات ذلك القرن كان يعمل في الموصل مبشرون ينتمون الى المجلس البريسبيتاري الأمريكي. [٣١]. وفي ١٨٩١وصلت الى البصرة إرسالية تبشيرية أمريكية بأسم (البعثة العربية) وكان مركزها في أمريكا في نيوجرسي ثم فتحت فرعا لها في مدينة العمارة بعد ذلك قامت بفتح مدارس تابعة لها في الزبير والناصرية. [٣٢]وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بلغ عدد البعثات التيشيرية الأمريكية العاملة في العراق خمسة في بغداد والموصل ودهوك وكركوك والحلة والبصرة . [٣٣]

وبعد تاسيس الدولة العراقية ١٩٢١ ولاسيما خلال فترة الثلاثينيات كان للخبراء الأمريكان في مجال التربية والآثار دور كبير في أدارة هذه المجالات. [٣٤]

ولعل أبرز آثار الأمريكان الثقافية في العراق هو تأسيس الآباء اليسوعيين لكلية بغداد عام ١٩٣١ والتي كانت تعرف في البدء بـ (BC on the Tigris) ومن ثم تأسيس جامعة بأسم (جامعة الحكمة) عام ١٩٥٦ لكن وبسبب حرب الأيام الستة مع اسرائيل عام ١٩٦٧ وغلق السفارة الأمريكية قامت الحكومة العراقية بوضع اليد على هاتين المؤسستين خلال أعوام ١٩٦٨ و١٩٦٩ وطرد الآباء اليسوعيين منها . [٣٥]

والواقع ان هذا التواجد الثقافي الأمريكي في العراق كان إيجابيا من الناحية العلمية ولم يعرف عنه تدخله في السياسة بل حتى انه لم ينجح في عملية التبشير أصلا. فكلية بغداد التي لاتزال قائمة حتى الوقت الراهن خرجت كوادر علمية مرموقة. لكن السؤال الذي يمكن أن يطرح هنا ÷و انه لو لم ينقطع الوجود السياسي والثقافي

الأمريكي بعد عام ٦٧هل كان الأمر سيكو مختلفا؟ بمعنى هل كانت الثقافة الأمريكية ستتحول من مجرد ارساليات تبشيرية الى مؤسسات ثقافية بطرز أخرى؟ ربما كان الأمر سيشبه الحال الثقافي الأمريكي في مصر ولبنان والذي أشرنا اليه سابقا.

ولذلك وبعد هذا الأنقطاع لم تأت الثقافة الأمريكية إلى العراق هذه المرة بصورة طبيعية وإنما جاءت في ظل الاحتلال فضلاً عن عوامل أعاقت عملها من جانب البيئة العراقية ومن أمور تتعلق بالجانب الأمريكي نفسه وبالتالي كان المشروع الثقافي الأمريكي في العراق مشروعاً حذراً بحضور أمريكي مؤسسي يغلب عليه الطابع الانتقائي في الاشتغال الثقافي.

أولاً: الثقافة الأمريكية في العراق: المشروع الحذر.

لابد من الإشارة هنا أولاً إن العراق لا يأتي كونه نموذجاً من النماذج التي ألقت الثقافة الأمريكية عليها إسقاطاتها، بل هو حالة خاصة، بمعنى آخر، إن تغلغل الثقافة الأمريكية في العراق يمكن أن يقال عنه إنه مشروع حذر، وذلك لأسباب عديدة منها ما هو عراقي ومنها ما هو أمريكي، فالبيئة للعراقية والوجود الأمريكي ،لاسيما بصيغته البنتاغونية في العراق، شكّل كلاهما حاجزاً معوقاً لانتشار الثقافة الأمريكية في العراق كما سنرى.

١ـ البيئة العراقية:

من دون الحاجة إلى الغوص في التاريخ ومقاومة الحضارة العراقية للغزوات الأجنبية نحاول هنا أن نعرض للبيئة العراقية الراهنة وعلاقتها بالآخر الأمريكي، وهذا بدوره يتطلب منا تحليلاً سوسيو– سياسياً. فالمجتمع العراقي ترسبت لديه ثلاثة موانع رئيسية جعلته ينفر من الثقافة الأجنبية لاسيما التي تأتي من خلال الاحتلال، ويمكن

إجمال هذه الموانع بـ (الذهنية الدينية، والذهنية القبائلية، والذهنية التوتالية)، فالذهنية الدينية في العقل العراقي ذهنية تحريمية في أغلب أحكامها لما يقع خارج فضائها الشرعي، وبالطبع فإن الثقافة الأمريكية بأنماطها السالفة الذكر تقع ضمن هذا الفضاء التحريمي، ولا ننسى إن الذهنية التحريمية العراقية المستندة إلى مرجعيات متشددة فرض تشددها طبيعة التنافس المذهبي في العراق إبتداءاً ، والتنافس السياسي لاحقا. أما الذهنية القبائلية فهي ذهنية، وإن كانت ذهنية براغماتية سياسياً في كثير من الأحيان، إلا أنها غير مستعدة للتخلي عن مكانتها المهمة في المجتمع العراقي لصالح ولاية ثقافية أجنبية، وهنا يتجسد التناقض الذي يتبدى في مفهوم ما بعد الحداثة في ساحته العراقية. فمفهوم ما بعد الحداثة الذي أصرَّ المحافظون الجدد في أمريكا على تطبيقه يستدعي، فيما يستدعي، بروز ما يسميه أحد الباحثين بـ (الهويات الأصولية) [٣٦]. وبالطبع فإن الهوية الدينية، أو بالأحرى، الطائفية، والهوية القبائلية إنما هي المكونات الأساسية لهذه الهويات الأصولية.

وبالتالي فإن تناقضاً افتراضياً سيحصل بين متبنيات الثقافة الأمريكية ،وليس السياسة الأمريكية، لاسيما الشعبية منها والأنساق أو البنى الدينية والقبائلية في العراق. وربما يستثنى من هذه القاعدة الكرد الأكثر ميلاً إلى البراغماتية والعلمانية والأكثر توقاً للإنعتاق من مخلفات الماضي الدكتاتوري (التوتالي). كما لا يفوتنا أن نذكر بأن الحكومات العراقية ذات الطابع الإسلامي والمحابية للظاهرة القبائلية أيضاً تشكل هي الأخرى عائقاً ضمن هذا الاتجاه لمحاولة تمرير الثقافة الأمريكية ، الشعبية منها على الأخص، وهذا الأمر يقودنا بالتالي إلى الذهنية التوتالية، المانع الثالث. والذي نقصده بالذهنية التوتالية هنا ؛هو الذهنية التي اعتادت على النظم الشمولية أوالتحجيمية سواء ما كان منها سياسيا أو اجتماعيا بحيث رسب في منظومتها القيمية والفكرية التي يغلب على معظمها الطابع الأبوي البطرياركي رواسب مثل (الأحادية ،المحافظة، والخوف من التغيير)، وهذا أمر تشترك به ذهنيات معظم العراقيين ، وهو

أمر جدير بأن لا يتقبل الثقافة الأمريكية الجديدة التي تقوم في احد أوجهها على تداول السلطة بالنسبة لثقافة النخبة، ومظاهر التغيير الجذري للحياة نحو الإنعتاق والتحرر من كل القيود بالنسبة للعامة. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن النظم الدكتاتورية السابقة في العراق كانت قد أنتجت ثقافة سياسية وتنشئة سياسية معادية للولايات المتحدة وثقافاتها الاستعمارية ولاسيما فيما يتعلق بحمايتها لإسرائيل، فضلاً عن إن العلاقات على جميع المستويات بين العراق والولايات المتحدة كانت مقطوعة لعقود من الزمن وتخللها حروب مباشرة وغير مباشرة وقد صاحب ذلك بالطبع انقطاعا ثقافياً لم يستفق منه العراقيين إلاّ عندما دخل الأمريكان بدباباتهم ، وليس بثقافاتهم، في ٩ نيسان ٢٠٠٣.

وربما أدرك الأمريكان هذه الصعوبات، ولهذا لم يقدموا على (التحرش) المباشر بهذه الذهنيات طيلة السنوات الماضية،بل حاولوا الاشتغال عليها بطريقة غير مباشرة فالعنف والتسقيط والتفكيك السياسي أمور كفيلة بفك هذه الذهنيات العتيدة وجعلها غير منتمية الى مرجعية معينة وبالتالي تكون مهيأة إلى الاتجاه النفعي الذي هو أحد أسس الثقافة الأمريكية لا سيما وأن الأمريكان أعدوا (جيشاً) لم يبدأ دوره بعد في السفارة الأمريكية يتكون من ٣٠٠٠ آلاف موظف بما يشكل أكبر سفارة في العالم وهو ما يمكن ان نسميه بـ(الحضور الكامن). فعلى سبيل المثال، كان بإمكانهم فرض الثقافة السياسية الأمريكية وفرض النظام الرئاسي في الحكم والذي هو نتاج أمريكي بامتياز لا أن يجدوا ، هكذا ، إن النظام البرلماني ذو الأصل البريطاني هو الأصلح في العراق . ولكن فضلاً عن هذه المعوقات هنالك أسباب تتعلق بالجانب الأمريكي ذاته ونسميها هنا الأسباب الأمريكية إجمالاً لها والتي تتعلق أصلاً بالوجود الأمريكي في العراق وفي بيروقراطية ذلك الوجود وفي التخطيط الإستراتيجي لأمريكا في العراق فوق كل ذلك.

٢ ـ الأسباب الأمريكية:

لعل من أهم الأسباب التي جعلت مسألة جلب الثقافة الأمريكية إلى العراق تصبح مشروعاً مؤجلاً نسبياً هو إن الأمريكان لم يأتوا بمشروع ثقافي وإنما بغزو عسكري مباشر، وكان من طبيعة مشروعهم هذا أن تكون الأولوية للأمن وليس لشيء آخر، لاسيما أنهم بدءوا يواجهون مقاومات مسلحة عنيفة، مثلما أنهم قد دمروا البنى التحتية، المتهالكة أصلا في العراق، واستجلبوا، إن بقصد أو بغير قصد، العدائية لهم من خلال جملة القرارات التي أتخذها الحاكم المدني السابق في العراق بول بريمر. وإذا كان لقائل أن يقول إن ما فعله الأمريكان في بداية غزوهم هو تكريس لثقافة النخبة الأمريكية ألما بعد حداثية فإن هذا الأمر إن كان صحيحاً فهو ليس سوى سياسة قصيرة النظر ترتبط بنظرية (الفوضى الخلاّقة) التي يصعب أن تتحقق مع الموانع الثلاثة السالفة الذكر(الدينية،القبائلية،التوتالية).

السبب الآخر يتعلق بما نسميه (بيروقراطية الوجود الأمريكي في العراق)، فمن المعروف أنه ومنذ غزو القوات الأمريكية للعراق في ٢٠٠٣ والبنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) هو الذي يدير الملف العراقي، ثم بدأ التغيير تدريجياً بإشراك وزارة الخارجية الأمريكية والمؤسسات التابعة ولها، وبالطبع العسكر لا ينشرون الثقافة بصورتها التجريدية والذهنية ، هم ربما ينشرون ثقافتهم العسكرية التي تدربوا عليها، هذا فضلاً عما أنشغل به الوجود الأمريكي في العراق فيما يتعلق بالفساد المالي الذي اكتنف عملية إعادة أعمار العراق. ففي تقريره الربع السنوي الذي قدمه إلى الكونغرس الأمريكي في كانون الثاني ٢٠١٠ أشار (ستيوارت بوين) المفتش العام الخاص لإعادة أعمار العراق– التابع للكونغرس– إلى أن مهمة فريقه في العراق هي " أقسى مهمة إشراف في تاريخ الولايات المتحدة " وإن فريقه قام بمراجعة معاملات مشكوك بها قيمتها ٣٤٠ مليون دولار أمريكي وفتحوا بها ٢٧ قضية تحقيق جنائية وانه اكتشف إن ٢,٥ مليار دولار كانت عرضة للهدر والاحتيال في عقد تديره الخارجية الأمريكية لتدريب الشرطة العراقية، مع العلم بأن الولايات المتحدة قد خصصت أكثر

من ٥٣ مليار دولار لإعادة أعمار العراق منذ ٢٠٠٣ تعرض الكثير منها للاحتيال والهدر كما أشار التقرير.[٣٧]

وإذا ما علمنا إن (بوين) نفسه يقر في مكان آخر بأن الفساد في العراق يتجاوز ١٠% من إجمالي الناتج القومي،[٣٨] يتأكد ما ذكرناه في القسم الأول من هذا البحث من أن الثقافة الأمريكية بحيثياتها الرأسمالية تجلب الفساد.

ومن كل ذلك نستنتج بأن الحضور الثقافي الأمريكي في العراق كان حضوراً كامناً خلف ستارات مؤسسية لجملة الأسباب السالفة الذكر، ولكن بالإمكان أن نتحرى هنا هذا الحضور الكامن والذي ربما سيكون فعالاً في المستقبل.

ثانياً: الحضور الثقافي الأمريكي في العراق واشتغالاته:

قبل كل شيء لابد من الذكر إن المجتمع العراقي ربما كان أقل المجتمعات العربية أو الشرق أوسطية تأثراً بالثقافة الأمريكية وليس لديه من هذه الثقافة سوى أفلام هوليود وملابس الجينز.أما بالنسبة للحضور الثقافي الأمريكي بعد ٢٠٠٣ فيمكن القول إنه حضور يغلب عليه طابع المؤسسة البيروقراطية ويدخل من خلال ما يسمى بعملية إعادة الأعمار حتى بدأت وزارة الخارجية الأمريكية باستلامها تدريجياً من خلال مؤسساتها العاملة في العراق مثل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USaid ووكالات أخرى مثل برنامج التجارة الذي يمول مؤسسات التمويل الأصغر الذي بدأ في العمل عام ٢٠٠٨ [٣٩] وهذه الوكالات تقوم بعملها بواسطة مقاولين ثانويين، فضلاً عن فيلق المهندسين الأمريكان الذي يقدم المعونة أيضاً عن طريق مقاولين عرب أو عراقيين محليين غالباً ما يتعرضون للخطف والاغتيال.

مع ذلك تجدر الإشارة إلى إن الخارجية الأمريكية قد بدأت توسع في حقلها الثقافي المؤسسي في العراق، ففضلاً عن شبكات الوكالة الأمريكية للتنمية USaid، أسست السفارة الأمريكية في بغداد "مركز موارد المعلومات IRC" وفي إعلانها عنه ذكرت السفارة بأنه " يقدم معلومات موثقة ومفيدة للعراقيين حول سياسية الولايات المتحدة

والثقافة والأعمال التجارية والبحوث " كما تصدر عنه نشرة الكترونية شهرية هي IRC Report والتي هي "مصدر للمعلومات للمبتكرين وصناع القرار ومنفذي المشاريع في جميع أنحاء العراق"[٤٠]

والواقع إن الولايات المتحدة قد أوجدت نفسها أولاً فضاءاً شرعياً في ممارسة مشروعها الثقافي في العراق من خلال "اتفاقية الإطار الإستراتيجي" التي وقعتها مع الجانب العراقي في تشرين الثاني نوفمبر ٢٠٠٨ وذلك فيما اشتمل عليه القسم الرابع من هذه الاتفاقية بعنوان "التعاون الثقافي" الذي يغلب عليه ظاهرياً طابع (التبادل) الذي هو في حقيقته سيادة ثقافية أكثر مما هو تبادلاً ثقافياً، فضلاً عن البون الشاسع بين الطرفين في مجال التقنيات الحديثة . فالفقرة الأولى من القسم الرابع في الاتفاقية تنص على " ١– تشجيع التبادل الثقافي والاجتماعي وتسهيل النشاطات الثقافية... وبرنامج تعليم وتعلّم اللغة الإنكليزية" والفقرة الثانية التي تخص التعليم العالي والبحث العلمي تؤكد على "تشجيع الاستثمار في مجال التعليم، بما في ذلك عبر إنشاء الجامعات وعلاقات التوأمة بين المؤسسات الاجتماعية والأكاديمية العراقية والأمريكية، مثل برنامج الإرشاد الزراعي الأمريكي"[٤١] أما الفقرة الثالثة فتنص على " تعزيز تنمية قادة المستقبل في العراق من خلال برامج التبادل والتدريب والزمالات البحثية مثل برنامج فولبرايت... "[٤٢] وبالطبع إن الذي يتمعن بالنصوص يجدها تصب بالنهاية لصالح نمط الثقافة الأمريكية في كل المجالات.

هكذا لم يشتغل الأمريكان في الواقع على الشارع العراقي بقدر ما اشتغلوا على المؤسسات عن طريق الأشراف المباشر على الوزارات العراقية ومن خلال المستشارين في العديد من المؤسسات الرسمية إبان الغزو . ولعل الأمريكان نجحوا في فرض الثقافة المؤسسية الأمريكية في الجهاز الحكومي العراقي من خلال إعادة هيكلة مؤسسات الدولة العراقية.

مع ذلك يمكن تلمس بعض الإشتغالات الأمريكية الحذرة في الشارع العراقي من الناحية الإعلامية على الأقل من خلال القنوات الفضائية والإذاعية مثل قناة (الحرة – عراق) وراديو سوا وإذاعة العراق الحر التي كانت تبث أصلا منذ ما قبل ٢٠٠٣، هذا فضلاً عن تعلم الكثير من العراقيين الذين عملوا عن قرب مع الأمريكان أساليب الحياة الأمريكية وتأثروا بها. كما إن هناك من النخب العراقية من هو متأثر أصلاً أو تأثر بعد الغزو بالثقافة الأمريكية. فعلى سبيل المثال هنالك ميل واضح لدى بعض المشتغلين في حقل القانون إلى استبدال النظام القانوني العراقي من نمطه الكلاسيكي ذو الأصول الفرنسية إلى النمط الأنجلوسكسوني أو الأميركي بالذات [*] ولعل الأمريكان لم يألوا جهداً في هذا السبيل عندما نشروا ثقافة إدارية قانونية جديدة في العراق مثل المحكمة الجنائية العليا ومجلس القضاء الأعلى، بل والعمل لسنوات بتشريعات أصدرها الحاكم المدني بول بريمر، كما روج الأمريكان لسياسة التعويضات من خلال المحاكم، وإذا كان هذا الأمر إيجابياً في بعض جوانبه فإنه يصب بالتالي في صالح الثقافة الأمريكية الجديدة.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الكثير من ذوي الاتجاهات العلمانية واللبرالية في العراق فإنهم أميل إلى الثقافة الأمريكية حتى في طابعها الشعبي، وهذا الأمر يمكن إدراكه من خلال مؤسسات المجتمع المدني التي بلغت في العراق ما يقرب ١٢ ألف مؤسسة، وهنا لا نريد أن ندخل في نظرية المؤامرة على أساس إن العديد منها واجهة لمؤسسات إستخبارية أمريكية أخرى، إلاّ إنها في الغالب تكون ذات نمط يسير مع التوجه الثقافي الأمريكي، بل إن الكثير منها أقام صلات وتلقي تدريبات داخل وخارج العراق بصورة علنية على يد مؤسسات أمريكية.[٤٣] ومن الجدير بالإشارة إلى إن العديد من أعضاء هذه المنظمات، كما المقاولون الذين اشتغلوا مع القوات الأمريكية، قد لاقوا حتفهم اغتيالاً من قبل جماعات المسلحة.

وفي مجال التربية ولاسيما مناهج اللغة الانكليزية نلاحظ دخول النمط الأمريكي في التعليم واستخدام المصطلحات الأمريكية بدلاً من الأصل الإنكليزي، هذا فضلاً عن مناهج تعليم اللغة التي قدمها الأمريكان لبعض الوزارات العراقية لتدريب المؤهلين للوظائف ، فضلاً عن الميل الواضح نحو الأسلوب الأمريكي في اللغة من قبل العراقيين المشتغلين في حقل تدريس اللغة الإنكليزية في العراق(**).

وفي مجال الجيش والشرطة تبدو الثقافة المؤسساتية الأمريكية واضحة من خلال العديد من المظاهر إبتداءاً من زي الشرطة الأزرق وزي الجيش المرقط الفاتح وهما نفس أزياء الشرطة والجيش الأمريكي، إلى نظام الوكالات في وزارة الداخلية والجيش، وحتى طريقة مسك السلاح للشرطي أو الجندي ونظام العمليات العسكري ونظم القيادة والسيطرة وطرق المداهمات والتدريب وهي كلها نظم أمريكية(***).

ولعل أوضح ما ظهر مؤخراً من أثر الثقافة الأمريكية كان في قطاع الرياضة والذي تمثل بتأسيس فريق عراقي للعبة البيسبول(كرة القاعدة) وهي لعبة أمريكية خالصة لم يسبق للعراق أن عرفها ولا حتى الدول العربية أو دول الجوار القريبة. وقد نظمت السفارة الأمريكية في بغداد رحلة لهذا الفريق إلى الولايات المتحدة بعد أن قامت بتكريمه في مقر السفارة في٣١ آذار ٢٠١٠ وقدمت له المستلزمات اللازمة. وقد قال السفير الأمريكي (كريستوفر هيل) في حفل الاستقبال "إنه لمن الرائع أن نشهد هذه المجموعة من الشبان العراقيين يتوجهون إلى الولايات المتحدة لتنمية مهاراتهم وتعلم الثقافة الأمريكية "[٤٤] والعبارة الأخيرة تعبير واضح لتشغيل وتسويق الثقافة الأمريكية في العراق.

ولعل من المفترض أن يكون قطاع التعليم العالي في العراق أوسع القطاعات تكريساً للثقافة الأمريكية بصيغتها المؤسسية، لكن الذي يبدو هو إن الجانب الأمريكي يجري في هذا المضمار على مضض. فزمالات (فولبرايت) يسمع بها الأكاديميون والباحثين العراقيين أكثر مما يرونها ، بمعنى إنها محدودة ، فعلى سبيل المثال يقول

بيان للسفارة الأمريكية صادر في يوم الخميس ٢٢إبريل ٢٠١٠ إن سبعين عراقياً قد التحقوا في العام الماضي ،أي٢٠٠٩، بجامعات أمريكية عبر برنامج فولبرايت"[٤٥] وبالرغم من أن الأمريكان قد يبررون ذلك بالأسباب البيروقراطية إلا أن الأمر قد يفسر بأن هناك ثقافة يريد الأمريكان للعراقيين أن يتعلموها وثقافة أخرى لا يريدون لهم أن يتعلموها . بل إن الأمر يشعر باللامبالاة أحيانا ويظهر نوعاً من التعالي الأمريكي بهذا الاتجاه. ففي حلقة تلفزيونية مغلقة عقدت بين الجانب العراقي والجانب الأمريكي ممثلا بإحدى الجامعات الأمريكية لغرض التعاون في حقل الزراعة والطب البيطري في ٢٢ مارس آذار ٢٠١٠ حضرها من الجانب العراقي وزير التعليم العراقي وعمداء كليات الطب البيطري والزراعة في العراق بينما لم يحضر من الجانب الأمريكي سوى سيدة تجلس في قاعة طويلة ترد على استفسارات الجانب العراقي فيما الوزير والعمداء يستفيضون بالشرح والطلبات .

ولكن من جانب آخر نجد وفي ذات السياق المؤسسي في قطاع التعليم العالي إنه قد تم افتتاح الجامعة الأمريكية في السليمانية في آب أغسطس ٢٠٠٧ بحضور السفير الأمريكي وأهم القادة العراقيين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية جلال الطالباني . والملفت للنظر إن رئيس الجمهورية أُعطي رئيس مجلس أمناء الجامعة فيما تولى برهم صالح نائب رئيس الوزراء في حينه ورئيس وزراء إقليم كردستان لاحقاً رئاسة مجلس الإدارة. كما نال نجيرفان بارزاني رئيس وزراء الإقليم ، في حينه،العضوية الفخرية فيها. [٤٦]

أما في المجال الثقافي والفني والذي يفترض أن يكون الميدان الرئيس لنشر الثقافة الأمريكية فقد بدا إن الأمريكان انتقائيين في اختيار، أو ربما صنع، جمعيات ثقافية وفنية. فهم قد أمدوا العديد من الجمعيات الفنية والموسيقية إلا أن ذلك لم يرق إلى مستوى يرفع من شان هذه الفرق , ومثال ذلك الفرقة السيمفونية الوطنية العراقية , فهذه الفرقة و حسب معلومات الباحث بحاجة إلى المزيد من التدريب خارج العراق

لكن الأمريكان لم يهتموا بذلك , ربما لأنها لا تمثل شيئاً في تكريس الثقافة الأمريكية . وباستثناء ما قام به فيلق المهندسين الأمريكي من إعادة إعمار المسرح القديم في قسم الفنون المسرحية في كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد ، لم يعر الأمريكان اهتماماً بقضايا المسرح في العراق . وبالعودة إلى الانتقائية الأمريكية في دعم الجمعيات الثقافية نجد أن الأمريكان يدعمون بقوة جمعية مثل جمعية (طواسين) الثقافية ا لتي عملت السفارة الأمريكية معها نشاطاً مشتركاً في مطلع ٢٠٠٨ من خلال مهرجان شعري وعرفت بها في موقع (أمريكا .غوف) الصادر عن الخارجية الأمريكية حيث أشار الموقع إلى " إن الجمعية ترغب في خلق روابط بين العراقيين والأميركيين خاصة أولئك الذين يعيشون في العراق حالياً "[٤٧].والانتقائية تقودنا أيضا إلى مشكلة طالبي اللجوء العراقيين لاسيما الذين عملوا مع القوات الأمريكية والذين ماطل الأمريكان كثيراً في قبول لجوئهم .

وهكذا لم تتكرس الثقافة الأمريكية في العراق كما تكرست في الكثير من دول الجوار مع إنها لم تحتل من قبل الأمريكان. حتى ثقافة (المولات) التي بدأت بصورة ضعيفة في بعض مناطق بغداد أثناء القيام بكتابة هذا البحث فهي ليست تأثراً بالثقافة الأمريكية بقدر ما هي استيراداً متأخراً للثقافة التجارية الرأسمالية من بعض الدول المجاورة.

الخاتمة:

يبدو إن الثقافة الأمريكية ، ومن أجل أن تكرس نفسها في مكان ما، لابد لها أن تشتغل وفقاً لظروف ذلك المكان. فتارة تجدها تعتمد على الثقافة الشعبية وتارة تستخدم معها الثقافة المؤسسية، وما بدا هو إن الأولى تمهد للثانية. ولكننا نجد إن الأمر مختلف في العراق. فالعراق لم يعهد الثقافة الشعبية ولا المؤسسية الأمريكية من قبل فضلاً عن إن الوجود الأمريكي في العراق جوبه بمعوقات تتعلق بالبيئة العراقية اجتماعيا وأمنياً، وكذلك بجملة أسباب أمريكية تتعلق بالبناء السياسي والأمني العراقي

والإقليمي وبيروقراطية الوجود الأمريكي ذاته بين البنتاغون ووزارة الخارجية الأمريكية. ومع ذلك فأن الوجود الأمريكي في العراق وما سينجم عنه هو ما يعول عليه القائمون على إنفاذ الثقافة الأمريكية في العراق. فهذا الوجود مع مرور الزمن سيخلق بيئة أو جواً يعتاد فيه العراقي على التعامل مع كل ما هو أمريكي. فتراكم أثر هذه الثقافة يأتي عن طريق الثقافة المؤسسية لا من خلال الثقافة الشعبية، ففي العراق تنقلب معادلة الثقافة الأمريكية، فالأولى هي التي تخلق الثانية هنا. وربما نظر القائمون على هذا الأمر إلى إنه وبعد الاستقرار الأمني في العراق سوف لا يجد العراقيون أمامهم سوى هذه الثقافة المؤسسية الأمريكية التي ستؤسس بدورها إلى المشروع الرأسمالي القادم في العراق، فالأمريكان عندما جاءوا إلى العراق لم يكن هدفهم تغيير نظام سياسي بقدر ما كان تغييراً للدولة. ولكي تغير الدولة في العراق لابد أن تغير ثقافتها (الغير لبرالية) لتستبدلها بأخرى لبرالية، ولكي تفعل ذلك لابد من الشروع بالتغيير المؤسسي، وهذا لا يتأتّى إلاّ بإنفاذ ثقافة اللبرالية الجديدة والتي هي روح الثقافة الأمريكية.

الهوامش

[١] محمود أمين العالم، "المشهد الثقافي الغربي ٢٠٠٠"، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٧٥، بيروت، تموز ٢٠٠٠، ص١٩-٢٠.

[٢] أنظر: السيد يسين، "العولمة الثقافية الأمريكية"، صحيفة الأهرام المصرية، ٨ يناير، ٢٠٠٩.

[٣] "كيف تتحدى فرنسا العولمة" مقالة مترجمة، ترجمة محمود أحمد عزت، مجلة الحكمة تصدر عن دار الحكمة، العدد (٤٠) السنة الثامنة، بغداد، ٢٠٠٥، ص ٨٢.

[٤] برهان غليون، العولمة وأثرها على المجتمعات العربية، ورقة مقدمة إلى اجتماع خبراء اللجنة الاقتصادية الاجتماعية لغرب آسيا حول "تأثير العولمة على الوضع الاجتماعي في المنطقة العربية" بيروت، ١٩-٢١ ك١ ، ديسمبر ، ٢٠٠٥.

http:// www.escwa.un.org/division/sdd.

[٥] عبد الوهاب المسيري، الأمركة والكوكلة والعولمة.
http:// elmessiri.com/articles.

[٦] أنظر :محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية: عشر أطاريح ، في السيد يسين وآخرون، العرب والعولمة، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨، ص٣٠٢.

[٧] حكمة عبد الله البزاز، العولمة والتربية، سلسة آفاق (١١) دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ٢٠٠١، ص٤٠.

[٨] كما ورد في: عبد النبي اصطيف "الأستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط" مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد (٢٣٣) تموز ١٩٨٩، ص ٣٢.

[٩] خالد قيس السحاتي، "وجه العملة الآخر الأمركة" جريدة العرب، ملحق العرب الأسبوعي١٦/٢/٢٠٠٩.

[١٠] عبد الإله بلقزيز، العولمة والهوية الثقافية، في السيد يسين وآخرون، المصدر السابق، ص٣١٤.

[١١] د. مصطفى رجب، أهداف الجامعة الأمريكية
http:// www.daraltarjama.com

[١٢] "سلسلة وول مارت جزء متميز من الثقافة الأمريكية"
http:// www.arabVolunteering.org

[١٣] "العرب يحبون الثقافة الأمريكية ويقبلون على برامج الترفيه ،" شبكة النبأ المعلوماتية، الخميس ٢٧ تشرين الأول ٢٠٠٥.
http:// www.annabaa.org

[١٤] المصدر نفسه.

[١٥] "المفكر الإستراتيجي جوزيف ناي محللاً الوضع بعد حرب العراق: الاعتماد على القوة العسكرية خطأ فادح" ، مجلة الجزيرة ، الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٤م.

[١٦] عبد الرحمن أبو عوف، سعياً لاختراق العقل العربي وفرض الثقافة الأمريكية .
http:// www.islammemo.ccc

[١٧] المصدر نفسه.

[١٨] د. حسن الياس محمد، أفريقيا ومزاعم ثقافة العولمة، قراءة جغرافية في آلية الانتشار الثقافي ٢٠٠٩.
http:// www.swidjeeran.com/ geography/

[١٩] عبد الوهاب المسيري، المصدر السابق.

[٢٠] هانس بيتر مارتن وهارالد شومان، فخ العولمة :الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة د.عدنان عباس علي،سلسلة عالم المعرفة٢٣٨، الكويت ، ١٩٩٨.ص٣٨–٤٠

[٢١] المصدر نفسه، ص ٤٤.

[٢٢] السيد يسين، المصدر السابق.

[٢٣] "العرب يحبون الثقافة الأمريكية ويقبلون على برامج الترفيه"، المصدر السابق.

[٢٤] انظر:

James Petras, The Ford Foundation and the CIA
http:// www. Rebellion. Org/ Petras.

[٢٥] "الغزو الثقافي الأمريكي والدور المشبوه لمؤسسة فورد"
http:// www.arabs vip.com

[٢٦] للمزيد حول الموقف الكندي والفرنسي أنظر: مي عبد الله سفو، "التربية والقيم الإنسانية في عهد العلم والثقافة والمال" مجلة المستقبل العربي، العدد (٢٣٠) ، ١٩٩٨، ص ٣٢.

[٢٧] "كيف تتحدى فرنسا العولمة" ، المصدر السابق، ص ١٦و ص٨١.

[٢٨] مقابلات واستقصاءات قام بها الباحث في مؤسسات تعليمية المانية شملت مدن من غرب المانيا : نورنبيرغ ، أيرلانغن، فيرتسبورغ عام ٢٠١١ . ومدن من شرق المانيا: برلين ولايبزك عام ٢٠١٢.

[٢٩] "العرب والغرب وإشكالية الهوية في زمن العولمة" ، القدس العربي، سبتمبر ٢٠٠٨.

[٣٠] هانز بيتر مارتن وهارالد شومان، المصدر السابق، ص٧٣–٧٤.

[٣١] الكسندر راداءوف،ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، البصرة ، ١٩٨٢، ص٢٢٥

[٣٢] المصدر نفسه، ص٢٣٠،٢٢٩

[٣٣] Jo.A..Denovo,American Interests and Policies in the Middle East١٩٠٠-١٩٣٩,Minneapolis,١٩٦٣, p.٣٥١

[٣٤] Ibid , p. ٣٩٢

[٣٥] انظر: ابراهيم خليل أحمد،تطور التعليم في العراق، البصرة، ١٩٨٢،ص٣٤٠ – ٣٤١

[٣٦] انظر: عبد الله الغذامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ٢٠٠٩ ، ص١٢.

[٣٧] المفتش العام الخاص لإعادة أعمار العراق، التقرير ربع السنوي المتقدم إلى كونغرس الولايات المتحدة في ٣٠ كانون الثاني ٢٠١٠.
http:// www.sigir.mil/

[٣٨] الفساد في العراق يكلف المليارات، موقع BBC Arabic
http:// www.bbcarabic.com.

[٣٩] للإطلاع انظر: موقع بوابة التمويل الأصغر.
http://aarabic.microfinancegaatway.org./

[٤٠] أنظر : موقع السفارة الأمريكية في العراق.
http:// Arabic. Iraq. Usembasy.gov/root/pdfs

[٤١] الفقرة ٢ من التقرير، المصدر نفسه.

[٤٢] الفقرة ٣ من التقرير، المصدر نفسه.

(*) مقابلات للباحث مع رجال قانون عراقيين.

[٤٣] للمزيد: الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية - مؤسسات المجتمع المدني العراقية.
http://www.usaid.gov/iraq.

مقابلات واستطلاعات قام بها الباحث مع مدرسي اللغة الانكليزية من حملة البكالوريوس. (**)

(***) مقابلات قام بها الباحث مع ضباط كبار في وزارتي الدفاع والداخلية العراقية.

[٤٤] فريق لعبة البيسبول العراقي يزور الولايات المتحدة، الموقع الرسمي لقيادة القوات الأمريكية في العراق، شركاء العراق . http:// www.shurakaa- iraq-com

[٤٥] برنامج فولبرايت، الموقع الرسمي لقيادة القوات الأمريكية في العراق، شركاء العراق . http:// www.shurakaa- iraq-com

[٤٦] العراق: افتتاح الجامعة الأمريكية في السليمانية
http://www.adnkronos.com/ aki/Arabic

[٤٧] قراءات شعرية أمريكية –عراقية ، موقع أميركان.غوف

http://www.american.gov/ar